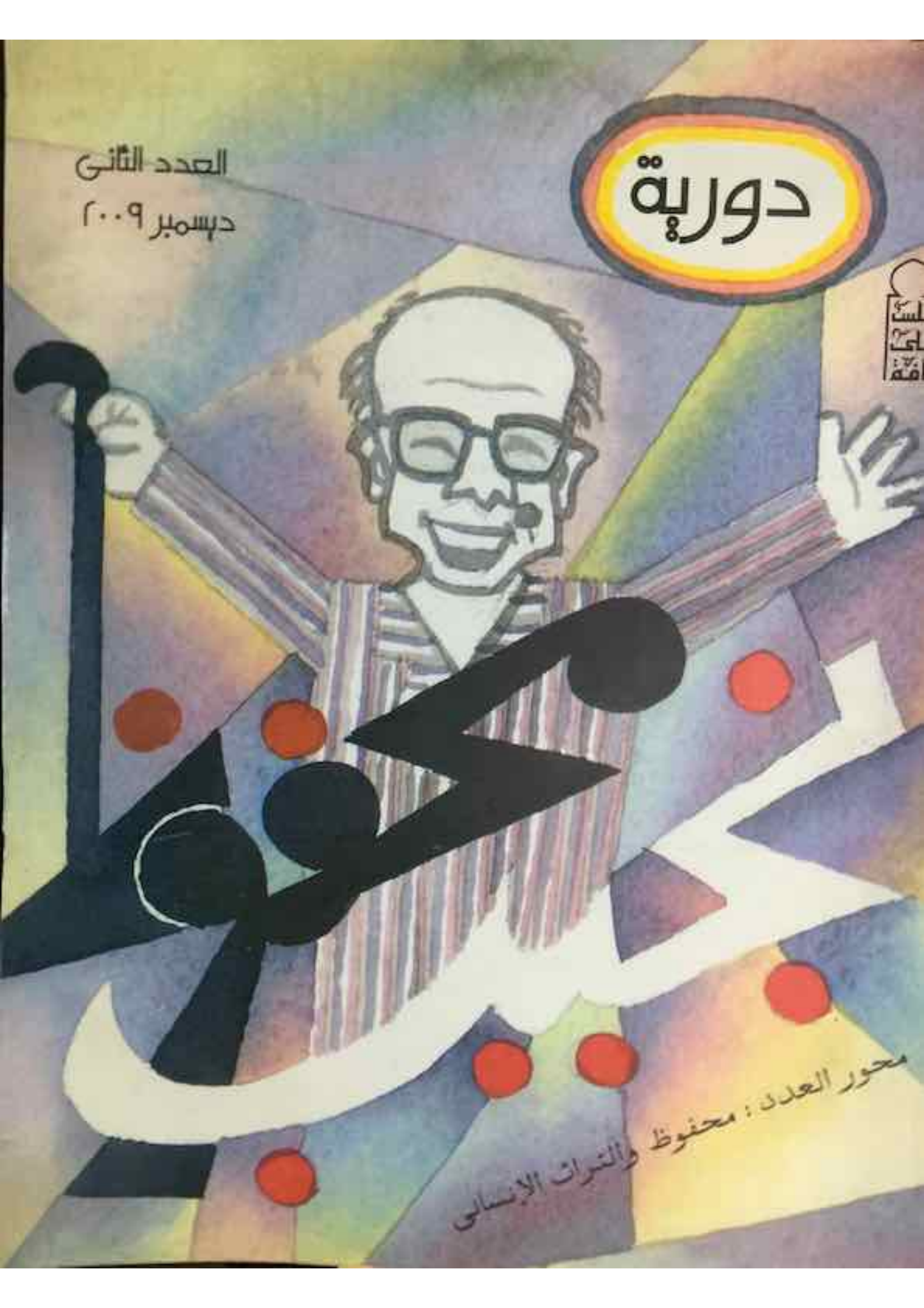

دورية
العدد الثانى
ديسمبر ٢٠٠٩
محفوظ
محور العدد: محفوظ والتراث الإنسانى

المجلس الاعلى للثقافة
و
مركز نجيب محفوظ

دورية نجيب محفوظ

العدد الثاني
ديسمبر ٢٠٠٩

نجيب محفوظ والتراث الإنسانى

الفكري والفلسفي في أدب نجيب محفوظ

محمود الضبع، جامعة قناة السويس، مصر

إذا كانت الفلسفة في إجمالها تمثل وجهة نظر، وتشكيلا واعيا للفكر على نحو ما، فإنه من هذا المنطلق لايمكن تصورعمل أدبي (سرديا كان أم شعريا) دون أن تحكمه رؤى فلسفية وتصورات فكرية، سواء أكان هذا الاحتكام مسبقا يتم الكشف عنه عبر موضوع النصوص منذ بداياتها، ومن ثم يتحكم في طبيعة تلقي النص، أو كان مفتتا عبر النص يكشفه المقول أو يكشف عنه الوعي.

وإلى المستوى الأول تنتمي قراءة عمل فني مثل "حي بن يقظان"[١] لابن سينا، والسهرودي، وابن طفيل، والتي تتجسد فيه على نحو فلسفي علاقة الإنسان بالكون والدين، وأهمية التجربة الذاتية في الخبرة الفكرية والدينية، ومنه بعض الأعمال السردية لنجيب محفوظ، مثل رواية "رحلة بن فطومة" التي يحكمها منذ البداية فلسفة الفكر الاشتراكي، والعلاقة بين العلم والدين، والثلاثية "بين القصرين، وقصر الشوق، والسكرية " التي تنطلق من الفلسفة الحتمية وتنويعاتها عبر حكاية الأسرة المصرية التي تعيش متناقضاتها، ومتناقضات الحياة من حولها.

وقد تتكشف الرؤية الفلسفية في النص الأدبي ليس على نحو مسبق، وإنما عبر البناء النصي، حيث تأتي مفتتة تكشف عنها مقولات وأفعال الشخصيات ومنطق الحكي ذاته، إذ يمثل الفلسفي والفكري هنا جزءا من بنية النص وليست كل النص كما في المستوى الأول، وقد تتعدد الرؤى الفلسفية والفكرية وتتنوع داخل العمل الواحد، وهو ما يتحقق على نحو متسع في أعمال نجيب محفوظ الروائية والقصصية، والتي تشير في إجمالها إلى الخلفية الفلسفية والفكرية التي كان يتكيء عليها، وما نتج عن ذلك من انتقال لها وبث لأفكارها عبر أعماله الإبداعية.

والسؤال: كيف كان يتكئ نجيب محفوظ على الفلسفة والفكر في بناء نصوصه السردية؟ وما المستويات الفكرية والفلسفية التي انتقلت من حقلها المعرفي إلى البناء النصي لأعماله؟

لقد درس نجيب محفوظ الفلسفة في مراحل تعليمه الجامعي، غير أنه تجاوز مرحلة الدرس إلى الاشتباك مع الفلسفة ومنجزها الفكري عبر أعماله القصصية والروائية وخواطره السردية[٢]، وهو ما أشار إليه رجاء النقاش في كتابه "في حب نجيب محفوظ"[٣] من تأثير أستاذيه الشيخ مصطفى عبدالرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب، وسلامة موسى، الصحفي والمفكر والثائر المجدد المعروف عنه تأثره بالحضارة الغربية الحديثة وفكرها التجريبي، والحضارة الفرعونية[٤] والدعوة إلى إحيائها، كما عايش نجيب محفوظ تحولات عدة في حياة مصر، فعايش الملكية، والثورة، والجمهورية بتحولاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وما يرتبط بها من تحولات في شخصية الإنسان وأساليب تعبيره وأشكالها، وطبيعة الفكر السائد.

وعايش نجيب محفوظ أنماطا من وسائل الحياة وبخاصـــة ما يتعلق منها بالثقافة والأدب، فعايش الصحافة والإذاعة والسينيما، ورأى أعماله على شاشات السينما والتليفزيون، وأتيحت له فرصة أن يشـــاهد كتابته وأفكاره من الخارج، وذلك منذ الخمسينات من القرن الماضي، وأتيحت له فرصة أن يحيا من بعدها سنوات طوالا ليكتب.

والتحم نجيب محفوظ مع الحياة اليومية وعامة الشعب والبسطاء والمهمشين، واستطاع في ذلك صـياغة نماذج بشـرية تنتمي إلى الواقع وإن لم تكن موجودة بالفعل، حيث اسـتطاع الارتقاء بها من مجرد كونها شخصية في رواية إلى كونها نموذجا ممثلا لنمط من أنماط الشخصية المصرية، والشخصية الإنسانية في صراعها الفكري عموما.

فهل يمكن الكشـف عن الفكري والفلسـفي في أدبه، وكيفية اشتغاله عبر منجزه السردي؟.

لقد رأى بعض المهتمين بأدب نجيب محفوظ أنه يمكن تقســيم منجزه الإبداعي(٥) إلى مراحل تبعا لتوجهها العام، تبدأ بالمرحلة التاريخية، وتضـــم أعمال: مجموعة همس الجنون 1938م، وعبث الأقدار 1939م، ورادوبيس 1943م، وكفاح طيبة1944م.

ثم تأتي المرحلة الاجتماعية، وتضـم الأعمال: القاهرة الجديدة 1945م، خان الخليلي 1946م، زقاق المدق1947م، السـراب1948م، بداية ونهاية 1949م، والثلاثية (بين القصرين1956م، قصر الشوق1957م، السكرية1957م).

وتأتي المرحلة الفكرية والفلســفية متمثلة في أعمال، منها: أولاد حارتنا عام 1959م، واللص والكلاب 1961، والســمــان والخريف1962م، والطريق 1964م، والشـحاذ 1965م، دنيا الله، ثرثرة فوق النيل، الطريق، ميرامار، خمارة القط الأسـود، تحت المظلة، الجريمة، حكاية بلابداية ولا نهاية، الكرنك، شهر العسل، حكايات حارتنا، المرايا، قلب الليل، الحب تحت المطر، حضـرة المحترم، الحرافيش، الحب فوق هضـبة الهرم، الباقي من الزمن سـاعة، الشـيطان يعظ، أمام العرش، عصـر الحب، رحلة بن فطومة، أفراح القبة، التنظيم السري، ليالي ألف ليلة، العائش في الحقيقة، رأيت فيما يرى النائم، يوم قتل الزعيم، حديث الصباح والمساء.

غير أن الفكري والفلسـفي لم يكن قصـرا على المرحلة الأخيرة وحسـب، ولكنه كان متكئا عبر كافة الأعمال حتى التاريخي منها، وهو ما ألمح إليه في ذكاء محمود أمين العالم بتعليقه على الروايات التاريخية لمحفوظ، وكيف أنها تعمل على تنمية الأحداث باتجاه واحد مطرد وتحديد زمني لبناء الأحداث بما يشــير إلى الحتمية التي يخضــع لها البشـر جميعا في علاقاتهم بالطبيعة والكون والمجتمع(٦).

أشكال الخطاب الفكري والفلسفي في أدب نجيب محفوظ:

عبر قراءة المشروع السردي لنجيب محفوظ يمكن رصــد بعض الملامح الكبرى لاشــتغال الفكري والفلسفي في الخطاب الأدبي، ومنه:

- **اعتماد منطق الحكاية على تجسيد فكرة ما أو فلسفة ما تتحكم في سير الأحداث وبنائها:**

حيث يخضع العمل الأدبي في فكرته العامة إلى منطق فكري أو فلسفة ما، وهو ما يتحقق في كثير من أعمال نجيب محفوظ، ومنها رواية **"رحلة بن فطومة "** التي صدرت عام 1983م، والتي يرحل بنا الكاتب فيها عبر عالم من الخيال والفلسفة والبحث عن المجهول، ويؤرخ فيها لرحلته الفكرية والروحية، ويعيد اكتشاف ذاته ويدعونا لاكتشاف ذواتها، من خلال شخصية ابن فطومة الذي وجد نفسه قد حمل الإسلام في قلبه طيلة الوقت دون أن يدري، ويكتشف أن اعتراضه وغضبه ليس من الإسلام ذاته، وإنما من المسلمين الذين جمدوا الفكر وأغلقوا الباب أمام الكثير مما كان مسموحا به في عصور الإسلام الأولى، ولذلك نجد ابن فطومة طوال رحلته يقارن بين ما يراه وبين ما يعرفه، بين حالة الإسلام في بلاد لاتدين به وبين حالته في بلاده، وفي كل مرة يتوصل إلى أن الإسلام لاغبار عليه أما الممارسات فهي المدانة.

تحكي الرواية قصة شاب مصري مسلم (قنديل محمد العنابي) أتعبه الفكر، فقرر القيام برحلة إلى بلاد مجهولة في المشرق بحثا عن المعرفة والعلم، ورغبة منه في التوصل إلى حلول لمشاكل وطنه، وبخاصة ما يتعلق بالمعاملات بين الناس والأخلاقيات.

وينتقل الشاب من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة باحثا عن المعرفة، من دار المشرق، إلى دار الحيرة، إلى دار الأمان، إلى دار الغروب، ويتزوج وينجب ويتعرض للسجن عشرين عاما، ثم يخرج من سجنه ويواصل الرحلة فيتزوج وينجب، ثم يرحل ثانية نحو المجهول بحثا عن دار الجبل، ولكنه قبل أن يصلها يسلم الدفتر الذي كان يسجل فيه مذكرات رحلته إلى قائد القافلة، وتنقطع أخباره، ويترك نجيب محفوظ الحكاية معلقة ربما ليثبت أن العالم الذي كان يبحث عنه الشاب قنديل محمد العنابي يوجد بداخله، وأن الحل دائما ليس في مكان آخر، وإنما هو داخل الإنسان.

إنها رحلة فلسفية يحتاج كل إنسان أن يقرأها لتكشف له عن نفسه، وتزيد ثقته بالعمل والبحث عن المعرفة والعلم، والتطور، وهي تعبر إجمالا عن تخبط الإنسان في بحثه عن الحقيقة ورحلته إلى الكمال المنشود. يقول في مطلع الرواية:

> **" الحياة والموت، الحلم واليقظة، محطات للروح الحائرة، يقطعها مرحلة بعد مرحلة، متشبثا فى عناد بأمل يتجدد باسما فى غموض. عم تبحث أيها الرحالة؟ أى العواطف يجيش بها صدرك؟ وكل فعل جميل أو قبيح يستهل باسم الله الرحمن الرحيم. وتستأثر بوجدانك ظلال بارعة لا تصمد لرياح الزمن ولكن أسماءها تبقى خالدة.. ومهما بعد المكان فسوف يظل يقطر ألفة، وسدى ذكريات لا تنسى، ويحفر أثره فى شغاف القلب باسم الوطن ".**

فهذه اللغة على الرغم من أدبيتها إلا أنها عبر تشـــكيلهـا الفكري تســـتثير كوامن التفكير على مســـتوى التلقي، وتحيل إلى الفلســـفي أكثر منها إحالـة إلى الروائي، فتفتح البـاب أمـام الفلســـفـة الوجودية وسؤال الهوية، والمعتقد الديني وسؤال المصير، والفلسفات التجريبية وسؤال المعرفة، والمفهوم الإبستمولوجي للمعرفة بشكل عام، ولا تخلو من إحالـة إلى الوجدان ومـا ارتبط بـه من فلسفات.

وفي حوار مع أمه من الرواية ذاتها، يقول:

وتساءلت عن السبب فقالت: كأنك لا ترى إلا الجانب القبيح من الحياة!.. الله صـانع كل شيء وله في كل شيء حكمة.

فقلت مندفعا: ســاءنى الظلم والفقر والجهل!

فقالت بإصــرار: الله يطالبنا بالرضـا فى جميع الأحوال.

وطرحت الموضوع للمناقشة مع الشيخ ولكن موقفه كان واضحا تماماً فهو يؤمن بالعقل وحرية الاختيار

حيث يعالج الكاتب مشـــكلة وجودية تعنينا جميعـا، تتعلق بـالمنظور الـذي نتعـامـل بـه مع الحيـاة، والوعي الفكري والفلســـفي الـذي نحتكم إليه، وهو إن كان يحتكم هنا إلى الديني في تفسير الوجود، فإنه لايتوقف عنده ولايغلق الباب عليه، وإنمـا يفتح الأفق نحو الوعي الفردي ودوره في تشكيل وعي الإنســان بالكون والحياة وما يرتبط بها من قضايا فكرية.

وعبر مقاطع الرواية تأتي العديد من المواقف التي تستثير الفكر، وتطرح رؤى نقدية، ومنها ما يرد على لسان الرحالة متباهيا، يقول:

إن الناس في الإســـلام من أصــل واحد، إخوة من أب واحد وأم واحدة لا فارق في ذلك بين الحاكم وأقل الخلق شـــأنا. ولكن سرعان ما يصارح نفسه متحسرا: هل يوجد لتلك الأخوة المزعومة أثر في المعاملة بين الناس؟

وعلى غرار تبني الفكر الفلســـفي في بنـاء العمل الروائي تأتي أعمال عديدة لنجيب محفوظ، منها:

الثلاثية (بين القصرين1956م، قصر الشوق1957م، السكرية1957م)، التي تعد من أعمق الأعمال التي قدمها على بســـاطتها، وهي تنطلق من الفكر الفلســـفي للحتمية(٧) والجبرية المثالية(٨)، والربط بينها وبين التعبير عن الواقع ومتنـاقضــــاتـه وتطوره وتمرده على الموروث، وهي تحكي إجمالا قصــــة الأســـرة المصرية عبر مرحلة تاريخية في مصر وما طرأ عليها من تطور اجتماعي، وما كان يربط بينها من وحدة الأضــــداد التي تبحث جميعها عن الصيرورة.

ويأتي على هذه الشـــاكلة المجموعة القصصية **" دنيا الله"** الصادرة عام 1962م، التي يرصد فيها حياتنا المعيشة بما فيها من خير وشر، تفاؤل ويأس، سعادة وحزن، إلى غير ذلك من المعاني الإنســانية، حيث يظهر عبر القصـــة الأولى (دنيا الله) عجز الإنســـان أمـام الإغراء

المادي تحت وطأة الفقر، وفي (موعد) يرصد عجز الإنسان أمام القدر، وفي (الجبار) يرصد مرارة الظلم و القهر، في حين يظهر في (كلمة في الليل) التجربة القاسية للأيام الأولى لرجل أحيل إلى المعاش، ويطالعنا القدر مرة أخرى في قصة (الحادثة)، أما قصة (حنظل و العسكرى) فتشير إلى أن المعاملة الحسنة للمجرمين تتأتي بنتائج جيدة، و لكن بأسلوب فني رائع بعيد عن الوعظ واللهجة الخطابية، ولم تكن (صورة قديمة) سوى انطلاقه لصحفي يحاول أن يرصد ما حدث لزملائه في المدرسة، وما فعلت المقادير بهم.

وتأتي كذلك رواية **"حضرة المحترم "** الصادرة عام 1975م، لتعتمد على الفكري والفلسفي منذ البداية، فهي تصور رحلة الإنسان إلى نهايته، وذلك من خلال قصة الشاب الطموح عثمان بيومي، الذي يتم تعينه في إحدى الوزارات، ولكنه منذ اليوم الأول لتعيينه يسيطر عليه حلم الجلوس مكان المدير العام عندما رأى مكتبه الضخم في استقباله للموظفين الجدد.. وإن كان من حق كل إنسان أن يحلم، فإن عثمان بيومي تجاوز في حلمه حدود الإنسانية، فبخل على نفسه في كل شيء، وحرم نفسه من الحياة الطبيعية، وسخر كل شيء لخدمة طموحه، التعليم، والتفاني في العمل، والتقرب إلى المسؤولين، وأجل كل ما رأى أنه يعيقه عن الوصول لهذا الأمل المقدس بتعبير نجيب محفوظ، ولذلك كانت حياته سلسلة من المفاجآت غير المتوقعة لنا كبشر عاديين، وكان فيها الكثير مما يجعلنا ننتبه إلى الأخطاء التي يمكن أن نقع فيها في سياق التطلع نحو بناء مستقبلنا. يقول في مطلع الرواية:

انفتح الباب فتراءت الحجرة مترامية لا نهائية. تراءت دنيا من المعانى والمثيرات. آمن بأنها تلتهم القادمين وتذيبهم. لذلك اشتعل وجدانه وغرق فى انبهار سحرى. فقد أول ما فقده تركيزه، نسى ما تاقت النفس لرؤيته، الأرض والجدران والسقف. حتى ذلك القابع وراء المكتب الفخم. وتلقى صدمة كهربية موحية خلاقة غرست فى صميم قلبه حبا جنونيا ببهجة الحياة فى ذروتها. عند ذاك دعاه نداء القوة، وحرضه على الفداء، ولكنه سلك مع الآخرين سلوك الطاعة والأمان. وتلبية لإغراء لا يقاوم خطف نظرة من القابع وراء المكتب ثم خفض البصر متحليا بكل ما يملك من خشوع.

والرواية في إجمالها تستند على فكرة فلسفية تدور حول رحلة الإنسان المقدسة في الكون وسعيه نحو مصيره، فهكذا يستقبل الإنسان الحياة، وهكذا يتعامل معها بانبهار سحري وحب جنوني لما يضعه هدفا نصب عينيه، وما يتصور أنه سيصنع له القوة.. وهو ما سعى نجيب محفوظ إلى تنبيهنا إياه من خلال التأكيد على أهمية الحياة مع الاعتدال في طلبها، والموازنة بين الحلم والطموح من جهة، وبين ممارسة الحياة الطبيعية من جهة أخرى.

وتأتي رواية **"حديث الصباح والمساء "** الصادرة عام 1987م، لتمثل لحياة الإنسان – أي

إنسان- على الأرض، منذ صرخة البداية وحتى شهقة الموت، لا يحيد أحد على هذه الحتمية – بمفهومها الفلسفي والطبيعي- وذلك من خلال حكاية خمسة أجيال من الأسر المصرية وعلى نحو تشعبي في اشتباكاتها وعلاقاتها الاجتماعية وصراعاتها، وهي جيل يزيد المصري وعطا المراكبي والشيخ معاوية القليوبي، وجيل أبنائهم، وجيل أبناء الأبناء، وجيل أحفاد الجيل الأول، وجيل أحفاد الجيل الثاني.

وعلى الرغم مما يبدو من أن القصة تحكي عن أجيال من البشر وعلاقاتها وصراعاتهم، إلا أنها يتحكم في منطقها منذ البداية المفهوم الفلسفي للحياة والموت، فكما لو كان نجيب محفوظ يحكي حكاية الحياة والموت على الأرض من خلال تعاقب الأجيال، وهو ما يمكن موازاته بالصباح والمساء، حيث توازي الحياة الصباح، ويوازي الموت المساء.

وتأتي قصة **"حكاية بلا بداية ولانهاية "** لتحكي عن دار الأكرم صاحب الطريقة الصوفية والمتحكم في مصائر الناس في الحارة، غير أن شباب الجامعة يتصدون له، ويعبرون عن فكرهم الاشتراكي وأفكارهم التي تحتكم إلى العلم في التعامل مع الحياة، كما يعبر عنه الحوار التالي بين محمود الأكرم، والطلاب الرافضين:

قلب عينيه فى وجوههم مرة أخرى ثم تساءل: ألا تعرفون ماذا يعنى الأكرم وطريقته لحارتنا؟

ساد الصمت قليلا حتى خرج منه على عويس قائلا:الحق أن نوايانا حسنة وإن يكن مزاحنا عاليا، ولكى تعرفنا على حقيقتنا فاعلم يا سيدى أننا طلاب علم، نحب الحقيقة أكثر من أى شئ فى الوجود، يؤسفنا أننا أزعجناك.

عاوده القلق لدى سماع صوته، ولكنه كبح انفعالاته وقال: نحن لا يزعجنا شئ. حتى الموت نفسه لا يزعجنا. ونحن طلاب الحقيقة منذ الأزل وإلى الأبد.

فقال على عويس:لعله اختلاف فى وجهة النظر.

- **لم يطالبكم أحد بالدخول فى طريقتنا.**
- **الآراء المتناقضة يا سيدى لا يمكن أن تعيش جنبا إلى جنب فى سلام.**

فتساءل الشيخ: ألا تعلمون أنه لولا الأكرم،لولا الأكرمية، لما كان لحارتكم ذكر ولا لأهلها شأن أو أمل.

فقال عويس بثبات:الدنيا تتغير بلا توقف ولا رحمة يا مولانا.

- **ولكن الحقائق باقية.**
- **التغير هو الشئ الوحيد الخالد يا مولانا!**
- **التغير؟!**
- **التغير فى كل يوم، فى كل ساعة، فى كل لحظة.**
- **هل تؤمنون بطريقة أخرى؟**

فأجاب أحدهم: لنا فى الحياة سبيل آخر غير الطرق!

فهذا المشـــهد يجســد المقابلة بين الدين والعلم، فـالشـــيخ الأكرم يهيمن بـاســـم الـدين، والطلاب يدعون إلى الاحتكام إلى العلم والتجريب العلمي، والشيخ يناضل من أجل الحفاظ على سلطة الدين، والطلاب يناضلون من أجل إقرار سلطة العلم.

وهكذا فإن نجيب محفوظ اسـتطاع عبر أعماله أن يعالج قضــايا فكرية كبرى، منها على ســبيل المثال التعبير عن صـــراع الإنســـان من أجل المعرفـة والعـدالـة والتوازن مع النفس والمجتمع والحياة، والكشــف عن موقف النماذج البشـــرية على اختلاف طبقـاتهـا من الـدين والوعي والعلم والقانون والمنطق والعقل، يحركها دوما الاحتكام إلى منطقهـا الـداخلي أكثر من الاحتكـام إلى الخارجي ســواء أكان قانونا أم عرفا اجتماعيا، وهو مـا يطرح الســؤال حول اليقين الفردي أم الالتزام الجماعي؟.

- **رســم شــخصــيات تنتمي إلى حقول فكرية وانتماءات فلسفية متنوعة داخل العمل الواحد:**

وهو مـا يمثـل أحـد أشـــكـال الاعتمـاد على الفكري والفلســفي في بناء العمل الســـردي عند نجيب محفوظ، ويأتي أحد أسرار الإبداع والإمتاع عنده، ما يتعلق بالشـــخصـــيات الروائية وبنائها حيث لايشـــعر أي متلق ســـوى بأنـه التقى هذه الشـــخصـــيات بالفعل، وأنها تنتمي إلى محيطه الواقعي والاجتماعي، شــخصــيات رآها وتعامل معها، ولنجيب محفوظ في ذلك أسـاليب عدة بدءا من التقاطها من الواقع وتسميتها باسم له مرجعيته الواقعية، ورنينه الموســيقي، ووصـــفها الدقيق داخليا وخارجيا دون إملال أو إفاضـــة، بما يمكن معه القول بأن نجيب محفوظ صــنع شــخصــيات روائية اســتطاع التأســيس لها لتنتقل من الرواية إلى الواقع الخارجي، ومنها شــخصــيات: الســيد أحمد عبدالجواد، وأمينة، وشخصيتا حسين وكمال في الثلاثيــة، وســعيـد مهران، ورؤوف علوان والمعلم عليش، والمعلم طرزان، ونور، ونبويـة عليش في اللص والكلاب، وشـــخصـــيات عامر وجدي، وزهرة، وطلبة مرزوق، وحســني علام، ومنصـــور باهي، وســرحان البحيري في رواية ميرامار، وهكذا.

ولعل دراسـة الشخصيات وبنائها عند نجيب محفوظ مما يســتحق التوقف أمامه في دراســات تحليلية تسـتطيع الوقوف على أسـرار تشـكيل هذه الشخصيات وجمالياتها.

وعلى المستوى الفكري والفلسـفي فإن نجيب محفوظ يهتم دوما في بناء شـــخصـــياته برســـم مرتكزاتها الفكرية والفلســفية من جهة، وبالتنويع في نمـاذجها عبر العمل الواحد من جهة أخرى، فشخصيات الثلاثية (بين القصرين وقصر الشوق والسكرية) ينتمي بعضها إلى الإخوان المسلمين، وبعضـــهـا إلى الشـــيوعيين، وغيرهـا، ويلتقي الجميع، فيلتقي الشـــيخ المنوفي، مع علي كريم وعبدالمنعم وأحمد الشـــيوعيين، بل قد يتحقق هذا الالتقاء في ازدواجية الشـخصـية الواحدة (السـيد أحمد عبدالجواد مثلا بين الالتزام الشـــديد في الداخل، والانحراف الشـديد في الخارج)، وكذلك الأمر في شـخصـيات رواية قشـتمر، التي ينتمي أفراد شــخصــياتها إلى انتماءات فكرية وفلســفية متنوعة بين الديني والوضعي.

هذا الالتقاء والامتزاج داخل البناء الســـردي هو في أســـاســـه تعبير حقيقي عن الواقع الحياتي المعيش لنـا جميعـا، والـذي يحتكم إلى التنـاقض أكثر من احتكامه إلى الاتفاق، بل إنه في داخل كل منا تناقضـات عديدة نستطيع التوصـل إليها بقليل من المراقبة للنفس وتحليلها.

- **التعليق على الأحداث ســـرديا وتوجيـه وعي المتلقي**

وهو أحد الأشـــكال التي اعتمد عليها نجيب محفوظ، فهو لايكتفي في بنائه الروائي بالوصــف أو السرد الإخباري عن أحداث وأفعال شخصياته، وإنما يتدخل لتوجيه وعي المتلقي بإشارات تكشف عن البنى الفكرية والفلســفية التي يريد التوجيه إليها، وأحيانا تأتي هذه التعليقات على نحو صادم، يتشـــاكل مع المعتقد الفكري، يقول في الشــيطان يعظ:

من مات في وعى الخلق فقد مات

ليســت الحياة قلبا يخفق أو دما يجرى

ولكنها معنى يتردد في وعى الناس.

فمثل هذا المقول لايمكن أن يمر على المتلقي دون التوقف أمامه لاختباره في ضـــوء الفكري والفلســفي فالحياة والموت ليســت بصـــورتها الطبيعية، وإنما الحياة معنى داخلي يعيش الإنسان بتاريخه في وعي الآخرين حتى بعد أن يموت ألا يحيل ذلك إلى الفلسـفات الأخلاقية، وفلسـفات ما بعد الطبيعة؟.

ويقول في حضرة المحترم:

على الأرض تطرح أسرار إلهية لا حصر لها لمن له عين وبصيرة..

إن الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصيرة..

بالحزن يتقدس الإنسان ويعد نفسه للفرح الإلهي..

لم يعد يبالى بما كان ولا بما هو كائن ولا بما سوف يكون.

ويقول في ثرثرة فوق النيل:

وأخرج من الـدرج محبرة وراح يملأ القلم. عليه أن يعيد البيان من جديد. حـركـة الـوارد. لا حـركـة الـبـتـة فـي الحقيقة.حركة دائرية حول محور جامد. حركة دائرية تتسلى بالعبث. حركة دائرية ثمرتها الحتمية الدوار.في غيبوبة الدوار تختفي جميع الأشـــياء الثمينـة. من بين الأشـــياء الطب والعلم والقانون.والأهل المنسيون في القرية الطيبة... ص9، 10.

فهذا التعليق يأتي في سياق التعليق على أنيس زكي بعد أو وبخه المدير لأنه قدم ملفا فارغا عن حركة الوارد ليســـت فيه نقطة حبر واحدة، لكنه تعليق يتجاوز حدود الحكي عن أنيس ذكي ليطرح وعيا فلســـفيا عن الحياة والعبث والحتمية والقيمة واللاقيمة.

- **عبر مقول الشخصيات:**

حيث يتم إنطاق الشخصيات العادية والمهمشة والمنتمية إلى العالم المنبوذ اجتماعيا وقانونيا بمقولات فكرية وفلسفية عميقة، كان من المعتقد أن وعي هذه الشخصيات الثقافي لايسمح لها إلى مثل هذا الفكر، غير أن نجيب محفوظ يؤكد هنا على أن الثقافة ليست هي المعيار للفلسفة، وإنما بسطاء الناس والمهمشون – أو من نراهم نحن كذلك – هم في حقيقتهم يقعون في المتن، ونحن الذين نقع على الهامش، ولكن كل في الأمر أننا لم نصغ إلى فلسفتهم ولم نطلع على وعيهم عن الكون، ذلك الوعي المتشكل بعمق لأنهم في محك التجربة على الدوام.

سعيد مهران في اللص والكلاب، دافعه الأول هو استعادة سناء ابنته، ودافعه الثاني هو الانتقام ممن استولى على زوجته وأمواله وابنته، الدافع نبيل، لكنه سجين وقاتل وهارب من العدالة، وأيضا له فلسفته في الحياة، يأخذنا معه إلى طبقات القاع في المجتمع القاهري، فيكشف عن وجهات نظر وطبيعة فكر هذه الطبقات، وعلاقتهم بالحياة والكون، وبخاصة أن الرواية تعبر عن المجتمع عقب ثورة 23 يوليو 1952م، وما تلاها من تغيرات في فكر المجتمع المصري عموما، وهيمنة الفكر الاشتراكي، وهنا يمكن الإحالة إلى حوارات سعيد مهران مع الشيخ الجنيد، ونور مع سعيد، وسعيد مع نفسه، وسعيد مع رؤوف علوان الصحفي المتحول.

وفي رواية السكرية، يتحدث عدلي كريم عن الماركسية، فيقول:

" حين تدرسوا الماركسية تذكروا أنها وإن تكن ضرورة تاريخية إلا أن حتميتها ليست من نوع حتمية الظاهرات الفلكية. إنها لن توجد إلا بإرادة البشر وجهادهم فواجبنا الأول ليس أن تنفلسف كثيرا ولكن أن نملأ وعي الطبقة الكادحة بمعني الدور التاريخي الذى عليها أن تلعبه لإنقاذ نفسها والعالم جميعا.. المجتمع الفاسد لن يتطور أبدا إلا باليد العاملة وحين يمتلىء وعيها بالإيمان الجديد ويمسي الشعب كله كتلة واحدة مع الإرادة الثورية فهنالك لن تقف في سبيلها القوانين الهمجية والمدافع ".

فالفكر الماركسي على اختلاف آرائنا فيه يلخصه عدلي كريم تعبيرا عن الوعي التاريخي به في زمن كان يمكن له أن يحمل عبء مشكلات الوطن وتحولاته الفارقة، تلك المشكلات التي تنبأ نجيب محفوظ بتفاقمها، وأكد الزمن نبوءاته.

- **التعبير عن الفكر السياسي من خلال تناول قضايا فكرية كبرى عبر مساحات من أعماله:**

كشف نجيب محفوظ عن كثير من المواقف السياسية في بعض أعماله صراحة، في رواية قشتمر بوصفها شاهدا – الراوي- عبر عن الموقف من سعد زغلول وحزب الوفد، وثورة 23 يوليو 1952، وجمال عبدالناصر، والسادات، وتسجل لبعض ملامح التاريخ السياسي على مدى سبعين عاما، ومن المعروف أن محفوظ كان ليبراليا ينتمي إلى الطليعة الوفدية، وكان كثير

الانتقاد لنظام جمال عبدالناصر، وفي عهد السادات بدأ مؤيدا لنظامه، ثم ناقدا له، والروايات الصادرة في هذه المرحلة تؤكد ذلك، بل تشير إليه بعضها صراحة مثل رواية "قشتمر" التي تتحدث عن وفاة سعد باشا زغلول وبقاء أفكاره، والانتقاد لنظام عبدالناصر، ثم إلقاء الأمل على نظام السادات، وعبر الأحداث يتم انتقاده، وهكذا عبر جلسة الأصدقاء الأربعة والراوي على مقهى قشتمر يتفقون على آراء سياسية، وينتقدون الفكر السياسي من حولهم.

لقد عالج نجيب محفوظ عبر رواياته قضايا عدة، منها: التدين والتطرف والحرية والعدالة والتقدم والانتماء والهوية والعلم والعمل والسلام وتأتي روايات "الباقي من الزمن ساعة "، و"يوم مقتل الزعيم"، و "ثرثرة فوق النيل"، و"الكرنك"، و"ميرامار"، و"اللص والكلاب" و"السمان والخريف"، و "أمام العرش " لتعرض جميعها لمناقشة بعض أو كل القضايا السابقة، والواقع السياسي، وانتقاد فكر الاتحاد الاشتراكي ومناصرة اليسار، والبحث عن الثورة باعتبارها الطريق الأوحد للخلاص، ومحاولة إنقاذ فكر القومية العربية .

وتأتي رواية "ميرامار" معتمدة على حدث رئيس بما فيه من سياسي وفكري هو الثورة الاشتراكية في مصر، من خلال عدد من الشخصيات التي يمثل كل منها شريحة من شرائح المجتمع، ويلتقون في بنسيون ميرامار بمدينة الإسكندرية، وهم: عامر وجدي - زهرة - طلبة مرزوق - حسني علام - سرحان البحيري. منصور باهي، ويلتقي الشيوعي مع الأرستقراطي مع الفلاح مع العامل، تحركهم أحداث واحدة يعبر فيها كل منهم عن رأيه ويطرح الحدث من وجهة نظره، وهو ما تعتمده الرواية تقنية سردية حيث يختفي الراوي لتحكي الأحداث نفسها عبر وجهات النظر المتعددة للأشخاص، والتي تدور جميعها حول علاقتهم بزهرة.

وفي رواية "ثرثرة فوق النيل" يبدو واضحا الانتقاد الشديد للعهد الناصري وأفكاره السياسية، حيث يصور مصر قبل نكسة 1967م، من خلال مجموعة من الأصدقاء يلتقون كل مساء في عوامة على شاطئ النيل، لكي يفرجوا عن أنفسهم هموم العمل والحياة السياسية.. في تلك الحقبة المهمة من تاريخ مصر، وهم يرون - من وجهة نظرهم - أن سفينة الوطن تسير دون حاجة إلى رأيهم أو معاونتهم.

ويرسم نجيب محفوظ مجموعة من الشخصيات التي تمثل الواقع المصري في تلك الآونة، فيطالعنا: أنيس زكى، الموظف بوزارة الصحة، وهو مثال المثقف المأزوم منذ وفاة زوجته وابنته، ونرى ليلى زيدان، خريجة الجامعة الأمريكية، والتي تعمل مترجمة بالخارجية، وأحمد نصر، مدير حسابات بإحدى شركات القطاع العام، ورجب القاضي المخرج والممثل الشهير، ومصطفى راشد المحامى، والأستاذ على السيد، الناقد الفني بإحدى الجرائد الحكومية، وخالد عزوز، الثري الذي يمتلك عمارة وفيلا وسيارة، وسمارة بهجت الصحفية، التي تدخل إلى عالمهم من أجل كتابة مسرحية، ويبدو الأمر في إجماله وعبر أحداث الرواية كما لو كان تقديم شهادة من قبل الكاتب على تاريخ مصر في فترة الستينات حيث تدور أحداث الرواية قبل النكسة مباشرة

وكأنها كانت مقدمات لا بد منها لحدوث نكسة 1967م.

وفي رواية "الكرنك " يلخص نجيب محفوظ آراءه السياسية من خلال خالد صفوان أحد أبطال الرواية الذي يؤكد على الكفر بالاستبداد والدكتاتورية، والكفر بالعنف الدموي، وأن التقدم يجب أن يطرد معتمدا على قيم الحرية والرأي واحترام الإنسان، فهي كفيلة بتحقيقه، كما يعرض لفكره عن العلاقة بالغرب قائلا:

العلم والمنهج العلمي هو ما يجب أن نتقبله من الحضارة الغربية دون مناقشة أما ما عداه فلا نسلم به إلا من خلال مناقشة الواقع، متحررين من أي قيد، قديم أو حديث.

والرواية تقوم إجمالا على حكاية مجموعة من الشباب آمنوا بثورة يوليو، وكانوا يعتقدون أن رجال الثورة على صواب مطلق، لكنهم أفاقوا على واقع أليم، حين مروا بتجربة اتهام السلطة لهم أنهم من أعداء الثورة، وحين يلتقون برجل يمثل الوجه الأسود للثورة (خالد صفوان)، الذي يأمر بانتهاك عرض زينب، وجلد إسماعيل، ويجبرهما على أن يكونا عملاء للمباحث، يتجسسان على رفاقهما، خاصة حلمي حمادة الشيوعي، رغم أنهما لم يرتكبا شيئا مخالفا للقانون، فإسماعيل اعتقل لمجرد أنه تبرع بقرش واحد لبناء مسجد تابع للإخوان المسلمين، وزينب قبض عليها لأنها صديقته، وفي المرة الثانية اعتقلوهما بتهمة الانتماء إلى تنظيم شيوعي، وحلمي حمادة مات تحت وطأة التعذيب. وهكذا يكشف نجيب محفوظ عن الجوانب السلبية والإيجابية أيضا للثورة وصولا إلى نكسة 1967م ومقارنة التاريخ الفكري للمجتمع والتوجهات السياسية الكبرى في هذا العصر.

أما رواية "أمام العرش " فتعد المثال الأوضح للفكر السياسي لنجيب محفوظ، إذ لم يكتف بعرض آرائه عن السياسة المعاصرة، وإنما استعراض تاريخ مصر السياسي منذ العصر الفرعوني وحتى عصر الكاتب، وذلك من خلال عقد محكمة إلهية في قاعة العدل برئاسة أوزوريس، وأعضائها إيزيس وحورس، ويقف تحوت كاتب الآلهة ومعه كتاب القانون فيدعو حكام مصر عبر التاريخ، ليمثلوا أمام عرش الآلهة، وعند وصول أحدهم، ودخوله إلى القاعة، يبدأ تحوت فى سرد ما فعله هذا الحاكم لخير مصر وأهلها أو ما قصر فيه تجاهها وتجاههم. وبعد ذلك تستمع المحكمة لدفاع الحاكم عن نفسه، ثم تنطق المحكمة بحكمها، إما بالجلوس بين الخالدين لينعم بالحياة السعيدة، أو الذهاب إلى الجحيم.

وقد كان نجيب محفوظ على وعي بأنه بداية من دخول الإسلام إلى مصر فليس لمحكمة أوزوريس الحكم على حكامها، وذلك لاختلاف ديانتهم، ولكن لها الحق فى إبداء رأيها بتزكية الحكام.

وقد توالى عرض الحكام، وجاء المؤلف بمجموعة من عامة الشعب ليترجموا حال البلاد فى عهد حكام زمن الخلفاء والدول الإسلامية، ثم توالى محاكمة شخصيات حاكمة بمفردها حتى انتهى المؤلف بالرئيس محمد أنور السادات مصحوبين بتزكية محكمة مصر القديمة.

تعقيب:

إن دراسة الفكري والفلسفي في أدب نجيب محفوظ يتجاوز بكثير ما تم عرضه من شذرات، وبخاصة ما يتعلق منه بالفكري الديني، الذي لايكاد يخلو منه عمل من أعماله، منطلقا في ذلك من احترام العقل وانتقاد الخرافة، والفصل بين المادة والروح تأثرا بفلسفة برجسون، ومعالجة الحرية الشخصية في إطار الديني، والكشف عن حقيقة من يدينون بالدين شكلا، ومن يحيا الدين في قلوبهم على بساطتهم، هكذا يجد المتلقي نفسه مع روايات وقصص نجيب محفوظ منساقا لاتخاذ موقف ما، فكريا وفلسفيا، مدفوعا بالتعاطف مع الشخصيات الروائية التي يطالع مصيرها كما هي وفي سياق وعيها هي بالكون والحياة والقضايا الكبرى والصغرى وفلسفة الوجود عموما.

الفكري والفلسفي في أدب نجيب محفوظ مكون أساس لا يمكن التواصل مع أعماله بتغييبه، ولايقتضي الأمر بالضرورة العودة إلى فلسفة بعينها للوقوف على الأدبي، وإنما محاولة التلقي الصحيح في إطار الرمزية التي غلف بها نجيب محفوظ هذا الفكري في أدبه.

هوامش:

1) أسطورة عربية فلسفية تحكي قصة شخص يدعى حي بن يقظان نشأ وحده في جزيرة، أنشأها أولا الفيلسوف ابن سينا، ثم أعاد بناءها شهاب الدين السهروردي، وأعاد كتابتها الفيلسوف العربي الأندلسي ابن طفيل، ثم كانت آخر رواية للقصة من قبل ابن النفيس، ويعد أشهر مؤلف من بين هؤلاء الأربعة التصقت القصة باسمه هو ابن طفيل، ولشهرتها صيغت على غرارها قصص غربية منها: روبنسون كروزو وطرزان.

2) نشير هنا مثلا إلى مجموعته رأيت فيما يرى النائم، التي يمكن تصنيفها على أنها خواطر سردية، تتجاوز شكل كتابة القصة القصيرة، إلى كتابة النص بالمفهوم المعاصر.

3) رجاء النقاش: في حب نجيب محفوظ – دار الشروق – القاهرة – 1995م– ص19، 20.

4) يمكن هنا الإشارة إلى تأثر نجيب محفوظ في بداية حياته بالحضارة الفرعونية منذ كان طالبا في الكلية بترجمته لكتاب "مصر القديمة" عن جيمس بيكي، الذي نشره له سلامة موسى، ثم رواياته الثلاث الأولى: عبس الأقدار ورادوبيس وكفاح طيبة.

5) محمود أمين العالم: تأملات في عالم نجيب محفوظ- الهيئة المصرية العامة للكتاب -القاهرة - 1970م.

6) يمكن العودة إلى المرجع السابق وبخاصة في دراسة البناء المعماري في بعض أعمال نجيب محفوظ.

7) والتي تذكرنا بحتمية إميل زولا مؤسس المذهب الطبيعي في الأدب، والذي يرى أن من واجب الرواية دراسة الطبائع الإنسانية والتكيفات العميقة الأثر للعضوية البشرية تحت ضغوط البيئة والأحداث.

8) للمزيد حول الجبرية المثالية في أدب نجيب محفوظ يمكن العودة إلى: إبراهيم فتحي: العالم الروائي عند نجيب محفوظ- دار الفكر المعاصر – 1978م، ويرى إبراهيم فتحي أن الجبرية المثالية هي التي تحكم رؤى نجيب محفوظ للعالم، وما تشتمل عليه من الإيمان بالتقدم: " كضرورة نابعة من مجرد تعاقب السنين وتحقيقا لمبدأ العدالة المجردة الكامن في طبيعة العالم " إنه إيمان بأن الزمن بطبيعته يمضي بالبشرية نحو التقدم، وهو مفهوم يختلف كل الاختلاف عن الإيمان بالحتمية التاريخية للتقدم على أساس الصراع الاجتماعي